**الفكر السياسي عند نيقولا ماكيافيلي**

**مقدمة:**

مع أن عصر النهضة لم ينجب أي فيلسوف مهم صاحب نظرية، إلا أنه قدّم لنا رجلا ذا مقام عال في الفلسفة السياسية، و هو نيكولو ماكيافيلي. [...] جاءت فلسفته السياسية علمية و تجريبية، مُؤسّسة على خبرته الخاصة بالشؤون العامة، و معنية بتقديم الوسائل عل الغايات المحدودة، بغض النظر عن التساؤل عن ضرورة النظر في كون الغايات حسنة أم سيّئة.

**توحيد إيطاليا**

أمام مملكة فرنسا التي تشكّلت، على المستوى الفكري على الأقل، بقيت إيطاليا مقسّمة و مفتوحة أمام الغزوات و الأطماع الخارجية. لقد ولدت مؤلفات ماكيافيلي من هذه الطروف.

فالمدن الحرة في شمال إيطاليا و التي سبق أن تحطمت عليها مشاريع آل هو هنشتاوفن الإمبراطورية قد **أصبحت متناقضات تاريخية، سياسية و اقتصادية، عاجزة عن مصارعة موقف و حالة يتطلبان سلطة مركزية و قوة عسكرية و سياسة خارجية أكبر و أكثر نشاطا.** عندما كتب ماكيافيلي كانت إيطاليا مقسّمة بين خمس مدن-دول كبيرة هي: مملكة نابولي في الجنوب، دوقية ميلان في الشمال الغربي، الجمهورية الأرستقراطية بالبندقية في الشمال الشرقي، و جمهورية فلورنسا، و الدولة البابوية في الوسط.

**لقد اغتنم ماكيافيلي ضرورة التخلي عن هذه البنى السياسية التي تم تجاوزها من الناحية الكمية و النوعية. فالمدن هي وحدات غير كافية عسكريا و ديموغرافيا. و حتى مع التطور الصناعي و التجاري التي عرفته، فإنها تبقى مدن ضعيفة اقتصاديا. لقد حان وقت الدولة-الأمة. فإيطاليا تستطيع و يجب عليها أن تتوحّد.**

غير أن إيطاليا لا يمكنها أن تتوحد إلا تحت سلطة أمير، و في هذا الصدد، فإن نماذج فرنسا و إسبانيا و بعيدا إنجلترا هي أمثلة حاسمة. **إنه الأمير أو السلالة الحاكمة اللذان بإمكانهما أن يقوما بإنجاز هذه الوحدة.** لذلك يطرح ماكيافيلي المشكلة وفقا لعبارات شديدة و دقيقة: **"من دون الأمير لن تكون هناك وحدة".** لكن و حسب مقولة يُعتقد أنها لماكيافيلي "الغاية تبرّر الوسيلة"، فإن الوسيلة هنا هي الأمير القادر لوحده تحقيق هذه الوحدة. لذلك **فالسياسة الماكيافيلية هي سياسة ملتزمة une politique engagée**. فبالنسبة لماكيافيلي **يجب استثارة و استحاثة الأمير و يجب على الأمير أن ينجح.** هكذا فإن **الكتابة في السياسة تعود لتكون كتابة دليل للنجاح السياسي.** فكل شيء يرتبط بدراسة بسيكولوجية لشروط النجاح.

**"السكرتير الفلورنسي":** فلورنسي الأصل، ولد ماكيافيلي في 4 ماي 1469 ليموت بعد 58 سنة بعد ذلك سنة 1527. فخارج مهماته و سفارته، فإن ماكيافيلي لم يغادر أبدا مدينته. ينتمي لعائلة عريقة، و قد عمل على تقديمها على أنها عائلة من طبقة النبلاء. من دون أن يكون من عائلة غنية، بالإمكان تصنيفه ضمن أولئك الذين لديهم مداخيل موروثة. في التاسعة من عمره، كان شاهدا على المذبحة التي تعرضت لها عائلة les Pazzi التي حاولت اغتيال لوران ميديتشي Laurent de Médicis؛ في سن الخامسة و العشرون كان شاهدا على دخول ملك فرنسا شارل الثامن إلى مدينة فلورنسا. تعلّم اللغتين اللاتينية والإغريقية و كان يبدى إعجابا كبيرا بروما القديمة. لقد تميّز نمط عيش ماكيافيلي بتناسب بين لاأخلاقية مذهبه السياسي و لاأخلاقية حياته الخاصة. فإذا كانت هناك "مدرسة فلورنسا" في السياسة و الرسم فهو رائدها من دون منازع.

وصل ماكيافيلي إلى أخذ مناصب في قيادة الشأن العام عقب الفشل الدموي لــ جروم سافونارول Jérome Savonarole الذي أراد قيادة الجماهير الفلورنسية إلى التخلّي عن الثروات و الأعمال الفنية. بالنسبة للبعض فإن هذا الراهب هو إنسان مثالي أو حتّى قدّيس تملّكته غاية العدالة الاجتماعية، شهيد العقيدة؛ و بالنسبة للبعض الآخر، فهو لا يعدو أن يكون سوى طوباوي دموي قاتلا للرجال بمبرّر إصلاحهم.

**مؤلفات ماكيافيلي:**

**كتاب "الأمير":**

في رسالة مؤرّخة في 9 أفريل 1513، شرح ماكيافيلي انشغاله الرئيسي كما يلي: " لقد جعل القدر أنني عاجز على التفكير في فن الحرير، و لا في فن الصوف، و لا في الربح، و لا في الخسارة، و عليه يجب علي إما أن أصمت أو أن أفكِّر في شؤون الدولة". من بين كل مؤلفاته، فإن كتاب **"الأمير"** هو الذي صنع شهرة و مجد ماكيافيلي. فقد قام بكتابته في تقاعده الإجباري، ليقدّمه إلى لوران دو ميديتشي للحصول على منصب عمل. انتهى من كتاب **الأمير** على ما يبدو بين سنوات 1513-1514، ليبقى العلم بنص هذا الكتاب محصورا في عدد محدود من القراء الذين اطّلعوا عليه إلا ابتداء من سنة 1515، ليتم لاحقا طباعته و توزيعه على نطاق واسع. حتّى أن هذا الكتاب القيّم في النصائح التي يقدّمها لم يثر اهتمام لوران دو ميديتشي الذي اكتفى ببعث قارورتي خمر لماكيافيلي.

**اهتم كتاب "الأمير" باكتشاف، انطلاقا من التاريخ و من الأحداث المعاصرة، كيف يتم الحصول على الإمارات و الحفاظ عليها، و كيف تُفقد.** ففي هذا المؤلف أي كتاب "الأمير"، الذي لم يكن بحثا في الفلسفة السياسية، لم يتساءل ماكيافيلي ما هو الحكم الأفضل، و لا ما هو الحكم المشروع، و لا ما هي السلطة أو الدولة عموما؛ بل اكتفى، مفكرا في الوضع الإيطالي، بالتساؤل: كيف نجعل النظام يسود، و كيف نقيم دولة مستقرة؟ و هو يستبعد حالة الملكية الوراثية، اليسير حكمها حتي على رئيس يفتقر إلى القدرات الخارقة.

يجب على الأمير، ليعلو، أن يكون "رجلا ماهرا أو مدعوما بالثروة"، و تأسيس إمارة ما يمكن أن يكون نتاجا لــ "مهارة موفقة" ماثلة في اكتساب الأمير لعطف مواطنيه. **غير أن ماكيافيلي يتعمّق أكثر في مسألة تكوين الإمارة بالقوة.** مهما يكن من أمر، فإن الأمير لا يبقى أميرا إلا بفضل خاصية قليلة الانتشار، هي طاقة عنيفة غاشمة، غريبة عن أي من اهتمامات الأخلاق العادية. و يتجنّب الأمير أن ينشر البلبلة في المؤسسات، بل يترك قدر المستطاع للمرؤوسين مهمة اتخاذ التدابير غير الشعبية. كما أن الأمير يختار مستشاريه بعناية متحاشيا أن يترك لهم أدنى قطعة من السلطة الحاسمة، ليتفرّغ بشكل كلّي للدفاع عن سلطته و العمل على بسطها بكل الوسائل، بما في ذلك الجريمة إذا كانت ثمة ضرورة: **"إذ أنه من الأسلم للأمير أن يكون مُهابا من أن يكون محبوبا".**

غير أنه يجب على الأمير أن يهتم بسمعته، فحصنه الأمنع هو محبة شعوبه. **هكذا يعترف ماكيافيلي بقوة الرأي العام**، لكن ذلك بهدف إنشاء نظرية لتوظيف هذا الرأي، الذي يعلم بأنه قابل للتكييف، و حسّاس بالقوة، و سهل الخداع. **و بالتالي يصبح المكر، بالنسبة للأمير، واجبا.** و تبدو سياسته كمزيج دقيق محكم من القسوة و الرياء، حسب الظروف و حسب طبيعة المسائل الخاصة، نظرا لأن "العبرة بالنتائج". **فإذا نجح الأمير في حفظ حياته و حماية دولته، "فإن جميع الوسائل التي يكون قد توسّل بها يُحكم عليها بأنها مُشرِّفة".** و تنطبق هذه القاعدة ذاتها على علاقاته مع الخارج. **فلا قيمة لوعد أو معاهدة إلا بقدر ما يظلان مطابقين لمصالح الأمير، بل لا يضيّع الأمير فرصة للتوسّع على حساب الآخرين. و يجب أن يمتنع عن الفتوحات البعيدة للغاية أو العسيرة جدّا، لسبب بسيط هو أنها قد تكون سببا في إضعاف الدولة لا في تقويتها".**

**كتاب "الخطب":**

أما **"الخطب"** Les Discours sur la première décade de Tite-Live، المكتوبة بين سنوات 1512 و 1519 على درجة من الأهمية لفهم الفكر الماكيافيلي. لقد كانت معالجة أمور الحكم في المتابين مختلفة بصورة لها مغزاها، فاعتقد بعض الكتّاب ممن حذوا حذو روسو، أن كلا منهما يناقض الآخر. **كلا الكتابين يعرضان نواحي من الموضوع نفسه: أسباب قيام الدول و انحلالها و الوسائل التي يستطيع بها الساسة جعلها دائمة.** فكتاب "الأمير" يعالج الملكيات أو الحكومات المطلقة، بينما يعالج "الخطب" بصفة خاصة توسّع الجمهورية الرومانية.

ففي كتاب "الخطب"، و على غرار أرسطو و على الأخص بوليب، يستعيد التحليل الكلاسيكي التقليدي لأشكال الحكم الثلاثة و لتعاقبها، و يؤكّد **على تفوّق النموذج المختلط : "حيث يحكم الأمير و العظماء و الشعب معا الدولة".** و هو يلّح عل **أهمية الميثاق الدستوري، غير أنه قلّا يسترسل حول حقوق المواطنين لمنه يورد ما يكفي، لإدانة قيصر:** حيث أن رزما التي يُمجّد و التي لا يقوى على الانفكاك عنها، هي روما الجمهورية. فحسب رأي ماكيافيلي **لا ينسجم النظام المدني مع وجود طبقة نبلاء إقطاعية. [...]** و إذا كان كثير الإطراء سنة 1519 من أجل إعادة الجمهورية في فلورنسا، فإنه يحتاط طالبا من آل ميديتشي أن يحتفظوا مرحليا بسلطة الأمير. و يقينا فإن هذا الحل الوسيط قد أملته نزعة انتهازية ضرورية. لأن الديكتاتورية، الديكتاتورية القانونية، هي ضرورية للجمهورية كي تتجاوز المخاطر الكبرى، بل أيضا لأن ماكيافيلي **يعتبر دور "المُشرّع" دورا حاسما، كمؤسس للجمهورية أو مصلح لها، فهو "إنسان متفوّق" يمارس سلطة لا اقتسام لها و في سبيل مصلحة الدولة وحدها، و هو خالي الغرض بقدر كافي، و لذلك يعتزل بعد أن يكون قد سنّ قوانين باقية بفضل حِكمَتِها.**

كما يجب التذكير بكتابه **"خطب حول إصلاح دولة فلورنسا** Discours sur la Réforme de l’Etat de Florence**"** الذي كتبه سنة 1521، و الذي كان سببا في عودة ماكيافيلي للشؤون العامة، و يتم تكليفه بكتابه و تحرير **التاريخ الفلورنسي من1251 إلى 1492،** ليُنجز هذا العمل و ينتهي منه سنة 1525.

إلى جانب هذه الكتب السياسية، كتب ماكيافيلي كذلك مؤلفا حول **"فن الحرب** L’Art de la Guerre**"،** و كدا قصائد شعرية، و نصوص مسرحية.

**نهضة الدولة و تمجيدها:**

توجد فكرة الدولة في قلب و مركز هذا الفكر السياسي. **فالدولة بنظر ماكيافيلي هي معطى، هي وجود لا يحاول تفسيره فلسفيا، كما لا يشعر بالحاجة لتسويغ خضوع الفرد إلى هذه الدولة شرعا.** و لجمهوريته متطلبات استبدادية تسلطية بقدر ما لحكم الأمير الاستبدادي. **"تمارس الدولة، الجمهورية أو الأميرية، إكراهها أو قسرها عل الفرد متجاوزة الخير و الشر، و قد تصل إلى الجريمة".** فالسياسة فن عقلاني في مبادئه، تتقبل، في حساباتها المبنية على قواعد مضطردة، جميع المعطيات التي تطالها التجربة، و هي فن وضعي بمعنى أنها ترفض كل مناقشة حول القيّم و الغايات.

فالدولة هي الموضوع الرئيسي و المركزي للدراسات التي قام بها ماكيافيلي. فهو مبتكر هذه الكلمة. فماكيافيلي هو الذي استعمل كلمة "الدولة" بالمعنى الحديث للكلمة الذي يتم اعتماده في كل اللغات الغربية (الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية) في السطور الأولى من كتابه الأمير. بالإضافة إلى ذلك، **أدخل ماكيافيلي تمييزا أساسيا بين الدول: "كل الدول التي كان لها أو لها إمبراطورية على الأفراد قد كانت أو هي إما جمهوريات أو إمارات".** هكذا فهو يميّز بين، و هو ما سيبقى خالدا في اللغة السياسية، الجمهورية من جهة و الموناركية أو الملكية من جهة ثانية.

غير أن ماكيافيلي إذا كان هو مبتكر "الدولة L’Etat"، باعتباره مكتشف الاسم، فإن هذا الشيء يبقى بالنسبة إليه محاطا بشيء من الغموض. فمن خلال خضوعها للمظهر الملموس الخاص بالظواهر، لم يكن مفهوم "الدولة" آنذاك قد استقل و تحرّر من واقع الرجال الذين يشكّلونها (أي الدولة). فمسار الدولنة Etatisation لم يصل بعد إلى كامل نضجه. فإذا كانت الأمور آنذاك تسير على طريق المأسسة، فإن **"الدولة" تبقى في تلك المرحلة مرتبطة بشكل ضيّق و قوي بشخص "الأمير".** فالارتباط و الغموض كانا أحد العناصر الأساسية للحكم المطلق "الأميري" L’absolutisme princier. إذن هي الدولة، **لكن دولة الأمير أولا** التي كانت تشد اهتمام و انتباه ماكيافيلي.

**النموذج المثالي: الأمير:**

الأمير هو الرجل الذي يجب أن يأتي، و لكن هو كذلك الرجل الذي يجب أن "يأتي" وفقا لمعنى مزدوج لهذه الكلمة. لقد رسم ماكيافيلي هذا النموذج المثالي لللأمير من خلال **الرجل القوي، رجل الدولة**.

***الأمير*** هو كتاب مختصر، غير أن الأدبيات المتعلقة به غزيرة و كثيفة. يبقى أحسن تعليق إل اليوم حول هذا الكتيب هي التعليقات التي قدّمها شارل بونوا Charles Benoit البروفيسور في مدرسة العلوم السياسية و النائب عن باريس، الذي وصف الماكيافيلية في ثلاثة أجزاء: قبل ماكيافيلي 1907، ماكيافيلي 1934، بعد ماكيافيلي 1935. كما أنه درس تأثير أفكار ماكيافيلي من خلال دروس في أكاديمية القانون الدولي في لاهاي، و غيرها من المؤلفات حول ماكيافيلي و أفكاره.

حسب شارل بونوا Charles Benoit، فإن الخصائص الأساسية للأمير هي:

* **الواقعية Le Réalisme:** فالأمير يتعامل مع ما هو كائن بالفعل لا مع ما يجب أن يكون.
* **الأنانية L’égoïsme:** لقد اعتاد الأمير على أن لا يكون خيّرا وسط رجال هم سيّئون. فالأمير يمارس عبادة و ثقافة "الأنا"، و التي هي جمباز الإرادة، و نظام فكري و شعوري و عصبي.
* **Le Calcul:** فالأمير يفضّل أن يكون مُهابا على أن يكون محبوبا. غير أنه يتمنى أن يكون الإثنين معا، و لكن مع استحالة أن يكون مهابا و محبوبا في نفس الوقت، فإنه يختار أن يكون مهابا، لأن ذلك يتوقف عليه وحده، في حين أن يكون محبوبا يتوقف على الآخرين.
* **اللامبالاة بالخير أو الشر:** الأمير يفضّل الخير، غير أنه يميل إلى الشر إذا أُجبر على ذلك و هو في غالب الحالات مجبر على فعل الشر.
* **المهارة L’habileté:** الميزة الرئيسية للأمير هي "الموهبة و المهارة Virtu و ليس الفضيلة Vertu" وفقا للإيتيمولوجيا الإيطالية لكلمة « virtuose » « virtuosité ». فالموهبة « virtu » هي النباهة و الاتقان، و هي في الوقت نفسه الطاقة و العزيمة و المرونة، لأن ميزات الأمير تفرض ابتكارا مستمرا، و ضغطا متواصلا باتجاه الهدف.
* **التظاهر والنفاق La Simulation et la Dissimulation:** الأمير هو خبير في اقتناص الفرص، متعاون حكيم للعناية الإلهية، و لكنه أيضًا مفسد جريء للثروة، ومحب كبير للمكر ومعجب عابد عظيم للقوة.
* **العظمة و الرفعة La Grandeur:** فالأمير أسمى و أعلى مكانة من عوام الناس. إن ما يسمح له بالإفلات من الالتزام بالفضيلة و الأخلاق و التنصّل منهما، هو بالضبط أنه فوق الرداءة السائدة. فهو يقع فوق الخير و الشر. فالجشع، الافتراس، الاحتيال، السرقة، الفجور، الغش، الغدر، الخيانة، كل هذا لا يمكن الحكم عليه من خلال مرجعية و مقياس مشترك للحياة الخاصة بمجموع الأفراد، و لكن يتم الحكم عليها من خلال المثل الأعلى للدولة في فعل ذلك أو الحفاظ عليه. المهم أن يصل الأمير إلى النتيجة، فليس هناك وسائل جيّدة و أخرى سيّئة. **(جدلية الضرورة السياسية و الأخلاق)**

تبدو رسالة ماكيافيلي للأمير واضحة جدا: **"إن الذي يقيم ديكتاتورية و لا يقتل بريتوس Brutus، أو الذي يؤسّس جمهورية و لا يقتل أبناء بريتوس، فإن هذا لن يسود إلا لفترة قصيرة".** هنا يبرز مفتاح الماكيافيلية و هو مفهوم **"منطق الدولة La Raison d’Etat": إنه الإرث الأساسي للتيار السياسي الذي سيتسبب ماكيافيلي في نشأته. إن هذه العبارة لم ينطق بها ماكيافيلي، لكنها موجودة بالتقريب لدى صديقه و تلميذه غيشاردان Guichardin.** على الأرجح فإن عبارة "منطق الدولة" كانت سائدة في تلك الفترة، و ماكيافيلي عمل فقط على تحديد معناها.

**منهج ماكيافيلي:**

السياسة جديدة، فكذلك المنهج جديد. يبرز ماكيافيلي كأحد مؤسسي علم السياسة الناهض، على اعتبار أنه **يستبدل التفكير بالملاحظة المباشرة و غير المباشرة التي تتم من خلال الاتصالات و القراءات.**  لقد كان ماكيافيلي منشغلا، كما يقول هو، **بقراءة الأشياء القديمة** la lecture des choses antiques، التي وجد فيها تجربة متراكمة أسّس عليها مذهبه السياسي sa doctrine politique. أما فيما يتعلق **بتجربة الأشياء الحديثة** l’expérience des choses modernes ، و إذا كان ماكيافيلي لم يلعب دورا رئيسيا، فإنه قام بتأدية مهام خارجية متعددة: أربعة لدى ملك فرنسا، مهمة لدى إمبراطور ألمانيا، و اثنتين لدى البابا. غير أن تلك التي تركت آثارا في ذهنه هي المهام التي قام بها لدى سيزار بورجيا حاكم البندقية الذي كان ماكيافيلي معجبا بشخصيته الشريرة. **هكذا كان ماكيافيلي يحتل مكانة تسمح له بملاحظة و فهم جيدين للأشياء.**

**كما كانت عبقريته تتمثّل في اكتفائه بالكتابة في السياسة فقط. فهو لم يكتفي فقط بوضع السياسة أولا، و لكن لم يكن يهتم إلا بها فقط.** و قد لاحظ أحد تلامذته و هو شيوبيوس Scioppius **هذا الفصل الأساسي للسياسة عن باقي أشياء المعرفة الأخرى لدى ماكيافيلي.** فهو يستبعد بشكل مقصود كل الأشياء الأجنبية عن السياسة في كتابه الأمير. **هكذا فإن الشيء "الأجنبي عن السياسة من خلال المظهر"، هو التأكيد على أن الأمير يجب أن يكون تقيّا ليفوز بالحياة الأبدية: فهذا يدخل ضمن علم اللاهوت. و بالمثل، القول أن الاستبدادية هي شيء مُخجل و مُذل هو شيء "أجنبي عن السياسة بواسطة المكان أو الموضع le lieu". فالسياسة يجب أن تبحث فقط في الوسائل التي اكتسبتها الاستبدادية أو خسرتها. كذلك يعتبر نقصانا في المنهج ادّعاء أشياء خاطئة: مثلا:**

* **اقتراح وسائل للمحافظة على السلطة و الاستمرار فيها كوسائل لهدم الدولة؛ مثل دعوة مستبد لكي يكون عادلا و متديّنا، في حين أنه إذا كان كذلك لم يعد مستبدا؛**
* **تقديم ما هو صحيح إلا في حالة جمهورية مثالية في حين أننا نتحدث عن الحكومات القائمة؛**
* **التأكيد مرة أخرى أن أمير ما يمكنه الاستمرار و البقاء في السلطة من خلال التزام دقيق بالإنصاف و حسن النية، في حين أن الواقع يُثبت العكس.**

غير أن ماكيافيلي كان ينقصه شيئا أساسيا ليكون عالم سياسة إيجابي، و هو الموضوعية و التجرّد من أية خلفية مصلحية.

لقد كان لماكيافيلي **خلفية مصلحية شخصية: فقد كانت له صعوبات مالية دائمة و نوستالجيا لمنصب السكرتير، لذلك كان يُنوّع من سلوكيات الانبطاح و الابتذال لدى عائلة آل ميديتشي.** فبمجرد خروجه من سجون هذه العائلة لم يتردد في بذل قصارى جهده لاستعادة رضاهم عنه بكل الوسائل. و هو ما كان ينجح فيه ماكيافيلي إلا بشكل سيّئ، غير أن ذلك لم يثن من عزمه شيئا.

**أخيرا،** و على مستوى أعلى، كان ماكيافيلي شغوفا برؤية معينة و محددة. لقد كان **صاحب قضية كبرى و هي استعادة وحدة إيطاليا التي جعلها هدف الآني.**

**إيطاليا موحّدة، متسلّحة و متحررة من رجال الدين أو علمنة الدولة الإيطالية:**

من الخطإ الاعتقاد أن ماكيافيلي لم يولي أهمية و قيمة للشعب على عكس بعض النظريات التي برزت بعده. فماكيافيلي، و هذا أحد مظاهر حداثته كذلك، يقترب من التصوّرات الخاصة بــ « Les Monocraties Populaires » التي لم تُقر بأن الشعب بإمكانه حكم نفسه، و لكنها كانت تريد أن يكون مقتنعا بالحكم. فضلا عن ذلك، **يجب أن معرفة ما إذا كان ماكيافيلي، و بشكل خاص في كتاب "الخطب"، يعتبر الشعب الروماني مشابها لما يمكن تسميته الأمير الجماعي** Un Prince Collectif. في كل الأحوال، **يجب أن يلعب الشعب دورا رئيسيا في خلق إيطاليا.** لقد كان ماكيافيلي يريد استبدال الجنود المرتزقة الذين يتم استئجارهم، و الذين كانوا يقاتلون بشكل سيّئ أو لا يقاتلون أبدا، بوحدات عسكرية تحرّكها المشاعر القومية، و التي يتم تشكيلها في فلورنسا من بين البرجوازيين و الشعب.

هكذا يخصّص ماكيافيلي، وفقا لذوقه و منطقه، مكانة هامة في كتاباته للقضايا العسكرية، **لأن الأمير هو أولا و قبل كل شيء قائد الحرب.** و لأجله ألّف ماكيافيلي كتاب **"فن الحرب"** و موجّها انتقادات عسكرية في كتاب **"الخطب"،** مما تسبّب له في بعض الحرج و المشاكل عندما تتم إثارته في الميدان.

أخيرا، فإن ماكيافيلي يتذكر جيّدا سافونارول و مشاكله مع البابوية، و إذا كان معادي بشكل طبيعي للممارسة الإنجيلية للراهب، فإنه كذلك عدو لرجال الدين الرومان الذين كان يؤاخذهم على شكوكهم. **إنه يعتبر أن العقيدة هي أحد وسائل حكومة الدول: " كل ما يميل إلى تشجيع و مناصرة الدين يجب الترحيب به، بالرغم من أننا نعترف بخطئه. و يجب علينا ذلك لأنه يسمح بأن تكون لدينا حكمة و معرفة أكثر بالطبيعة البشرية. فمن حرص الرجال الحكماء للانسجام مع الأقوال الدينية المأثورة نشأ الاعتقاد في المعجزات التي نحتفل بها في إطار الأديان، حتى تلك التي تنطوي على أكبر الأخطاء. فهؤلاء الرجال الحكماء يعتمدونها مهما كانت مصادرها، و تم الاعتراف بسلطة آراءهم لدى كل الآخرين".** و قد كتب تلميذه **غيشاردان** Guichardin: **"لا تدخل أبدا في صراع مع الدين، و لا مع الأشياء التي يبدو أنها تابعة لله: إن لها قوة كبيرة على روح الأغبياء و المغفلين".**

إن أساس التفكير السياسي عند ماكيافيلي يقوده إلى موقف مضاد للمسيحية أكثر من مما يقوده إلى موقف لا ديني. فهو يؤاخذ على الإنجيل (أو على وجه أدق على ما يعتبر أنه تشويه قام به الكهنة و الرهابنة للمسيحية الحقيقية التي يزعم ماكيافيلي بأنها مدينية وطنية و محاربة) بأنه أضعف أصحاب القدرات، و أنه لم يُقدِّس إلا "المساكين و الناس المستسلمين إلى التأمل بدلا من الحياة الفعّالة".

لقد أبدى ماكيافيلي قسوة و شدة حيال رجال الدين بسبب مسؤوليتهم عن تراجع العقيدة بل وحتى انهيارها، في حين **"أن حكم و إدارة شعب متدين هي مهمة أسهل".** كما أنه **يؤاخذ على المسيحية أنها ليست دينا مدنيا، معارضا إياها بالديانات القديمة التي كانت تركّز على الفضائل القوية التي تجعل الشعب قويا و حرّا،** في حين **" أن ديننا يجعل السعادة الأسمى مرتبطة بالتواضع و احتقار الأشياء البشرية"؛** كانت هذه المبادئ تبدو له أنها **تجعل " الرجال أكثر ضعفا... و أكثر استعدادا للتحوّل بسهولة لفريسة للأشرار. فهؤلاء قد رأوا أنهم يستطيعون من دون خوف استبداد رجال مستعدين لتحمّل الشتائم بدلا عن الانتقام لها من أجل الفوز بالجنة".**

إذن، لدى ماكيافيلي، تجد السياسة نفسها و قد أصبحت مُعلمَنة على نحو أكثر جذرية مما عند الرواد الآخرين. إن ماكيافيلي، يكره و يزدري حكم الكهنة، و يعادي السلطة الزمنية للكرسي المقدّس، -لكنه واقعي بقدر كاف إذ يعترف بأن "الكرسي المقدّس" اشتد بأسه في ظل يوليوس الثاني *Jules 2* – إنما يذهب إلى أبعد من هؤلاء الرواد أو المفكّرين. فهو لا يكتفي بعلمنة الدولة، بل يريد أن يخضع لها الدين بصورة كاملة، هذا الدين الذي يتصوّره كأداة للسلطة و كعنصر للتماسك الاجتماعي.

فضلا عن ذلك، فهو كذلك يؤاخذ حكومة روما، **لأن وجود البابوية يبدو كأكبر حاجز أمام الوحدة الإيطالية، لأن هذه البابوية هي في الوقت نفسه على درجة من الضعف لضمان وحدة إيطاليا و على درجة من القوة لكي تسمح بها.** في هذا المعنى كتب ماكيافيلي: **"لقد أبقت الكنيسة و تُبقي على إيطاليا مقسّمة، و حقيقة لم تكن أية مقاطعة قوية و سعيدة إلا أن تكون مجتمعة كلها تحت لواء قوانين جمهورية أو أمير، مثلما كان عليه الحال مع فرنسا و إسبانيا. و السبب في أن إيطاليا ليست في إطار هذه الظروف و لم يكن بالإمكان حكمها من طرف حكومة جمهورية أو أمير هو: الكنيسة".**

لقد قاده موقفه في علمنة الدولة و تمجيدها إل نتائج عديدة: منها:

* عداء للإمبراطورية و لكل ما يمكن أن يذكِّر بالنزعة العالمية المسيحية؛
* ريبة و ازدراء للأرستقراطيات النبيلة ذات الأصل الإقطاعي؛
* تصوّر واقعي خصوصا للعلاقات بين الدول: فنظرا لأن ماكيافيلي مُعجب بالفتح الروماني، فقد ثبّت في هذا الموضوع القواعد ذاتها التي قام عليها سواء للجمهوريات أو للأمراء. **فالدولة لها نزعة طبيعية لأن تكبر و تتسع، و لا وجود لأخلاق أو لقانون دولي. و في غابة كل شيء فيها حل لأن يُؤخذ و يُستولى عليه، تكون المسألة الوحيدة هي أن تحسب الدولة جيّدا مبادراتها، و أن تقدر أفضل تقدير نسب القوة و الحيلة و تبدو واضحة في ظل هذه الشروط الأهمية الأولية للتنظيم العسكري في الدولة.**

**المراجع المعتمدة**

* برتراند راسل، ***تاريخ الفلسفة الغربية . الفلسفة الحديثة. الكتاب الثالث***، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012.
* جان توشار، **تاريخ الأفكار السياسية. من عصر النهضة إلى عصر الأنوار. 2،** ترجمة: ناجي الدراوشة، دمشق: سوريا، دار التكوين للتأليف و الترجمة و النشر، الطبعة الأولى، 2011.
* جورج سباين، **تطور الفكر السياسي، الكتاب الثالث،** ترجمة: راشد البراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010.
* Marcel Prélot, Georges Lescuyer, *Histoire des Idées Politiques,* Paris : Editions Dalloz, 13ème édition, 1997.